العنوان:	الإمام الجزولي الصوفي الثائر
المصدر:	دراسات
الناشر:	جامعة ابن زهر - كلية الاداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	خليل، عبدالحكيم
المجلد/العدد:	ع 16
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الصفحات:	177 - 204
رقم MD:	515288
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	علماء الصوفية، الجزولي، عبدالرحمن بن محمد بن ابي بكر، ت 807-870هـ.، التراجم، سوس، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/515288

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
خليل، عبدالحكيم. (2013). الإمام الجزولي الصوفي الثائر.دراسات، ع 17716 ، - 204. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/515288

إسلوب MLA
خليل، عبدالحكيم. "الإمام الجزولي الصوفي الثائر."دراساتع 16 (2013): 177 - 204. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/515288

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الإمام الجزولي الصوفي الثائر

عبدالحكيم خليل سيد أحمد
أكاديمية الفنون
مصر

توطئة :

تمثل التجربة الصوفية جزءً لا يتجزأ من التجربة الدينية، وبعداً من أبعادها، مادامت التجربة الدينية تترجم في النهاية إلي بطانة عقائدية وممارسة أخلاقية، يقول عنه «أركون :». . . هو تيار فكري يمتلك معجمه اللغوي والتقني الخاص به، كما يمتلك خطابه المتميز ونظرياته المتفردة، وفي الوقت ذاته يتمتع هذا التيار بأسلوب حياة دينية يستخدم الشعائر والاحتفالات الفردية والجماعية من أجل أن يجعل الجسد والروح يتواكبان ويساهمان في عملية تجسيد الحقائق الروحانية»[1].

وقد فرض التصوف حضوره في المغرب العربي (المغرب الإسلامي) عقائدياً وسياسياً، وكتب التاريخ تؤكد على أن الفكر الصوفي دخل إلى المغرب مترادفاً مع الطلائع الأولى للفاتحين المسلمين، واستطاع النجاح واكتساح القرى والحواضر والجبال والصحاري دون أية مقاومة أو رد فعل رافض؛ اللهم باستثناء اتجاهات بعض من العلماء والفقهاء.

هذا وقد مر التصوف في المغرب بمرحلتين: الأولي هي: مرحلة التبعية؛ حيث تم إدخال التصوف ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي من قبل حجاج الأماكن المقدسة. أما المرحلة الثانية فهي : مرحلة مغربة التصوف؛ التي دشنها عبد السلام بن مشيش . ورغم أنه درس على يد أئمة الصوفية التابعين كأبي مدين الغوث وعلي بن حرزهم، فإنه لم يسلك مسلكهم بل سعى إلى التميز عنهم . وقد أكمل تلميذه أبو الحسن الشاذلي مرحلة مغربة التصوف لتصل ذروتها مع محمد بن سليمان الجزولي .

---

(1) محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، رأس بيروت، المنارة، ط2، 1996م.

هذا الإمام الذي نود أن نلقى الضوء عليه من خلال التعريف به و بدوره كأحد رواد الفكر والتجديد في المغرب العربي خلال القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي . من خلال تناول حياته وإسهاماته وتأثيره على شعب المغرب العربي (الإسلامي) . وذلك بالاستعانة بـ «المنهج التاريخي والمنهج الاستنباطي» للكشف عن الحلقة المغمورة من حياة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي وتاريخ طريقته الجزولية .

أولاً: السيرة الذاتية للإمام الجزولي (التربية والانتشار):

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان بن سعيد بن يعلى بن يخلف بن موسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن عبد الله بن جندوز بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حسان بن إسماعيل بن جعفر بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام بن السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل هو محمد بن سليمان بن داود بن بشر بن عمران بن أبي بكر الجمال أبو عبدالله الجزولي السملالي الحسني المغربي ثم المكي المالكي الشاذلي(2).

عرفه ابن خلكان: بضم الجيم والزاي، نسبة إلى «جزولة» ويقال أيضاً «كزولة» بالكاف، وهي بطن من بطون «البربر»(3).

وأسرة الشيخ الجزولي الحسنية المثلثة تنتميان لقبيلة سملالة الجزولية بالحلف، وهي تعرف بالإحكاكيين وهي أسرة علم كبيرة ولها فروع بمختلف مناطق السوس الأقصى وبحوز مراكش بل وحتى خارج المملكة المغربية الآن بديار شنقيط وهم المعروفون هناك بالشرفاء السملاليين .

1 . طفولته:

ولد الجزولي سنة ست وثمانمائة أو التي بعدها سنة (807 هـ ـ1404م) بجزولة من أعمال المغرب . وقد مات أبوه وهو ابن ثمان سنين أو نحوها، وقضى طفولته الهنيئة في بلاده جزولة من إقليم سوس المراكشية . وتجول مع أخيه عيسى بمراكش وأكمل بها حفظ القرآن وأقام بها ستة عشر عاماً يشتغل في الفقه(4).

(2) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ ـ 1992م، 12جزء، الجزء 7، حرف الميم (651)، ص258-259.

(3) خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء السادس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) 1980م . وفي الذيل لابن عبد الملك : القزولي، بقاف معقودة مضمومة) قلت : وهي في «البربرية» (اكزولي) والسملالي نسبة إلى سملالة (من قبائل جزولة).

(4) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مرجع سبق ذكره، ص258-259.

2. شبابه ورجولته :

اتخذ الشيخ الجزولي لنفسه في مرحلة شبابه منهجاً تربوياً صحيحاً غير متشدد، استمد أصوله من الطبيعة الحيوية للدين الإسلامي والتي تعتمد على علاقة الفرد بخالقه بعيداً عن توصيات الجماعة أو المذهب أو الارتكان لسلوك الفقهاء وتفاسيرهم وتأويلاتهم. أصول تتسم بالتربية المحافظة والمتفق عليها: التوبة، الرجاء، القناعة، الورع، الصبر، جهاد النفس، ترك العباد، الخوف، الحزن، الزهد، التوكل، الرضا بالقضاء والقدر.

أسلوب الحياة هذا لم يبتعد فيه عن الواقع الذي يعيش بداخله، امتلك فيه لجام العقل محاولاً الارتقاء بالجسد والروح معاً في عملية تجسيد ومعايشة الحياة الروحية الصوفية الزاهدة. مع عدم إهماله لمظهره الخارجي وهندامه المنمق الجميل، متشبهاً في ذلك بحسن مظهر إمامه سيدي أبو الحسن الشاذلي، الذي كان يحسن اللباس، ويجيد العمل، ويحس مريديه عليه. فتصوف الإمام الجزولي لم يتخذه عقيدة فقط، ولكنه كان منهج حياة وضعه لنفسه، وتدرب عليه، ليصلح به قلبه، ويحفظ به بدنه؛ حتى امتلك زمام أمره واستطاع بذلك أن يخرج به إلى مريديه معلماً وناصحاً وهادياً به بإذن ربه تبارك وتعالى. حتى استطاع الشيخ الجزولي بما تتمتع به شخصيته الإيمانية الراسخة وبفضل ثقافته الإسلامية الواسعة وقوة إيمانه الشديد، أن يفرض نفسه داخل مجتمعه في منطقة تتعايش فيها قيادات وأمراء القبائل وبفضل حيازة تلك الشخصية لشروط الزعامة استطاعت أن تتحول إلى شخصية قيادية تمتلك الصفات الكاريزمية لنشأة جماعة صوفية والدعوة لها.

واتخذ الإمام الجزولي آسفي، مدينة الولي أبي محمد صالح مقراً لسكناه، ليظهر فيها نفوذ الجزولي، ساعد على ذلك استعداد أهلها لتقبل الطريقة، بالإضافة إلى وقوعها في منطقة لها تاريخ عريق في التصوف، وهي ركراكة. لكنه لم يطق المكوث فيها لأسباب راجت حول طريقته، فلم يجد الإمام مأمناً وملاذاً سوى في بلدته السوسية أجزولة، وبقي هناك إلى أن توفى.

3. علمه وتدينه :

تعد منطقة سوس من بين المناطق المغربية التي شهدت انبثاق حركة تثقيفية وتعليمية مبكرة، وحسب العلامة محمد المختار السوسي؛ فإن القرن الخامس الهجري يعد مرحلة أساسية في تشكل الإرهاصات الأولى لهذه الحركة العلمية، خاصة أن هذه الفترة شهدت توافد ثلة من علماء الأندلس إلى المنطقة.

ومثلت سوس على امتداد التاريخ وتعاقب الحقب أرض خصب ونماء، بما تؤتي من زروع وثمار، وبما تُفيض من خيرات وأرزاق . وكانت كذلك معقل جهاد وكفاح، بما لأبنائها الأشاوس من إيمان راسخ وعقيدة قوية، وبما لهم في الوطنية من مواقف ثابتة أبية . وكانت إلى جانب هذا وذاك - إن لم أقل قبله وبعده - حصناً للغة العربية وموطناً للعلوم الإسلامية وما يتصل بها من فنون وآداب . وقد كان للسوسيين في هذا المجال قصب السبق بما درّسوا وعلّموا، وبما ألّفوا وأبدعوا، وبما حفظوا واستظهروا، على مثال قلّ له النظير، إن لم يكونوا قد تفرّدوا به، مثلما تفردوا بأنماط من الثقافة الشعبية تحتفظ على الدوام بحيويتها وغناها في مختلف الألوان والأجناس التي تُبدَع باللهجة السوسية الحلوة، أو تمارس في توسل رائع دقيق بالحركة والإيماء والإيقاع المنغّم المطرب[5].

وكانت فاس كعادتها لا تمنح الطلبة سوى بنيقة (غرفة) ضيقة بحجم القامة مخصصة للمبيت و المطالعة، وخبزه يومية بها؛ يمكن من خلالها الحفاظ على استمرارية الحياة .

وكان الطالب الجزولي محظوظاً في وقته وزمانه، فقد عاصر بعد أن التحق بمدرسة»الصفارين»، بالعارف الكبير سيدي أحمد زروق الذي كانت له القدم الراسخة في فقه مالك، فارتوى منه الشيخ الجزولي الفقه المالكي، لدرجة أنه كان يحفظ «المدونة» عن ظهر قلب ويشرحها .

وقد عاش حياة عزلة وتأمل، سافر بعدها إلى مدن الحجاز ومصر ومدينة القدس للاتصال بالعلماء والشيوخ المربين . ليعود بعد سبع سنين من السفر والترحال إلى مدينة فاس ثانية، ويؤلف هناك «دلائل الخيرات» أو«الدليل»، كما يسميه مريدوه من المغاربة .

وقد أنابه أبو الحسن على بن مسعود بن نفيس وأبو الفضل بن عساكر حضوراً عليهما في الرابعة وحدث به، سَمِعَ منه الفضلاء والحفاظ . وممن أخذ عنه النجم بن فهد . وسكن مسجد بني الفرفور بالعنابة يؤم فيه ويؤدب به الأبناء؛ وكتب بخطه الكثير . وكان خيراً مُدِيماً للتلاوة حافظاً لكثير من التاريخ والشعر[6].

ثم رجع الجزولي للساحل ولقي به أوحد وقته الحفيد أبا عبدالله أمغار الصغير فأخذ عنه ثم انقطع في الخلوة أربعة عشر سنة، ورْدَهُ نهاراً أربعة عشر ألف بسملة وسلكتين من دلائل الخيرات وبالليل سلكه منه وربع القرآن، ثم خرج للانتفاع به وظهر له كرامات[7].

---

(5) عباس الجراري، كلمات تقديم - الجزء الثاني - جمع وتقديم : حميدة الصائغ الجراري، منشورات النادي الجراري، 38، الطبعة الأولى، محرم الحرام 1428 هـ - يناير 2007م، مطبعة الأمنية – الرباط - المغرب .

(6) المرجع السابق نفسه .

(7) أحمد بابا التنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 963 - 1036م، إشراف وتقديم : عبد الحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، الجزءان 1-2، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، رقم(664)، ص545 .

4. وفاته :

اتخذ الجزولي من آسفي، مدينة الولي أبي محمد صالح، مقراً لسكناه، وانتشر ذكر الشيخ وزاويته المجاورة للبحر في الأماكن البعيدة، فتصدر في خلوته للمشيخة، واجتمع لديه أصحابه ومريديه، فصارت بذلك مدينة آسفي قبلة للمتشوفين إلى التصوف "الشاذلي الجديد" الذي بدأت أفكاره ومواقفه تثير غضب بعض أعيان المدينة وعلى رأسهم حمادي بن أبي فرحون، الذي ضاق ذرعاً مما يدعيه الإمام الجزولي، ليقوم بنفيه خارج أسوار المدينة قبل أربعين سنة من احتلال البرتغاليين لأسفي، إلا أنه لم يبتعد عن المدينة، ليستقر ببباديتها بالقرب بمنطقة الشياظمة، وهناك ازداد أتباعه وشاع خبره.

وقد أخذ الشيخ الجزولي الحنين إلى جزولة، وبقي بها إلى أن توفى، وقيل أنه مات مسموماً ـ تم اغتياله ـ في غفلة من أتباعه ومريديه؛ في الركعة الأولى من صلاة الصبح يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الأول عام سبعين وثمانمائة الموافق لـ1465م . وكانت جنازته حافلة . ودفن بمكان يدعى (آفغال أو أفوغال) بالشياظمة[8].

والشيء الذي أوقد نار الفتنة أو ما يعرف عند المؤرخين بفتنة السياف ـ عمرو السياف ـ، الذي كان شيخاً متصوفاً، من أتباع الإمام الجزولي وتلامذته، حاول الانتقام من قتلة شيخه، فاجتمع حوله أتباع الطريقة الجزولية حاملاً جثمان شيخه الجزولي في تابوت ينتقل به أين ما حل وارتحل، باعتبار أن شعبية الجزولي في بادية آسفي كانت واسعة، ومحبته في النفوس كانت قوية، مما جعل هذه البادية تستقطب الأنظار، فاكتسبت ثورته بذلك شعبية واسعة، امتد صداها إلى أرجاء الإقليم بكامله لتشمل بعد ذلك كلا من دكالة، وحاحا، والشياظمة، وهسكورة، وسوس الأقصى [9].

وبعد موت عمرو السياف شاع أمر هذا الولي الصالح الجزولي، فسارع أمير من دولة الشرفاء بمراكش هو السلطان أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج الذي نفذ هو الآخر أمر والده الأمير أبي عبد الله القائم، وهو أول مؤسس للدولة السعدية...حين خاف السلطان وقوع سوس في يد النصارى . فنقل جثمان الشيخ الجزولي بأمر منه إلى مراكش ودفنوه وسط حائط وجعلوا قبرا إلى جانبه وهو المكان الموجود فيه الآن تحت جدار حتى لا يسرقه المجاهدون بهدف الحصول على بركة جثمان الشيخ . كما نقل جثمانه أيضاً من قبره إلى دفين رياض العروس بمراكش بعد سبع وسبعين سنة؛ ولم يتغير منه شيء، حدث بذلك من شاهده [10].

---

(8) خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سبق ذكره .

(9) عبدالرحيم النبوي، آسفي نيوز جريدة الكترونية :
http://www.safinews.com/index.php?op=suite&art=2349

(10) أحمد بابا التنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، مرجع سبق ذكره، ص545 .

ثانياً : تصوف الإمام الجزولي :

أخذ الإمام الجزولي تصوفه عن الشيخ أبي عبدالله أمغار عن شيوخه... عن القطب أبي الحسن الشاذلي عن أبي محمد سيدي عبدالسلام بن مشيش عن الشيخ سيدي عبدالرحمن المدني؛ طريقهم تسلسلت بالأقطاب إلى الشيخ الغوث أبي مدين عن أشياخه بن حرزم مع أبي يعزا و قطب الشرق و المغرب مولاي عبد القادر الجيلاني في تسلسل عن الشيخ أبي بكر الشبلي عن الشيخ إمام الطريقة الجنيد قطب الأولياء عن خاله السري السقطي عن الشيخ معروف الكرخي عن الشيخ داود الطائي جبل العلم عن الشيخ حبيب العجمي عن رأس التابعين الحسن البصري عن باب مدينة العلم علي رضي الله عنه زوج البتول بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

1 . البرنامج الدعوي :

ظهرت الطريقة الجزولية في القرن السادس عشر بالمغرب مع الإمام الجزولي، أحد الرجال السبعة العلماء الذين نزلوا بمراكش، الذي جدد طريقة الشاذلية لتواكب مستجدات العصر، فانتشرت الطريقة في المغرب انتشاراً سريعاً وواسعاً عم المشارق والمغارب . وهو ما يعكس أهمية الطريقة ومحافظتها على منهج وطريقة وفكر مؤسس الشاذلية سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه .

فقد انتهج الصوفية المغاربة منهجا يتسم بالبساطة والوضوح وعدم التعمق والتوغل فيما ليس تحته عمل، والالتزام بحدود النص الشرعي وعدم الإغراق وإطلاق الحقائق، بل يعتبرون ذلك استدراجا وامتحانا فيتعوذون مما ينكشف لهم «ويفرون منه، ويرون أنه من العوائق والمحن»[11]وهذا ينسجم مع المحيط العام السائد في المغرب .

وقد اعتبرت الطريقة الجزولية نفسها وريثة للطريقة الشاذلية الأم ومجددة لها، حيث بَنَا الجزولي أفكاره على أسس الطريقة الشاذلية لكنه زاد فيها المبالغة في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه من خلال الصلاة عليه، وألف في ذلك كتابه الشهير بـ«دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار» .

ومن بين أهم المبادئ التي تقوم عليها الطريقة الجزولية، هناك المداومة على ذكر الله تعالى والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكذا جعل الشيخ ضرورياً للسلوك (من شرط التائب أن يقتدي بشيخه)، والاتصاف بالأخلاق الحميدة المتمثلة في

(11) ابن خلدون، المقدمة ، الجزء الثالث، ص1002 .

محبة الخالق، وقلة النوم، والصبر وعدم الشكوى من برد أو حر، وتجنب الغضب والحقد، والزهد في المال والجاه، وعدم ترك ما يورث، إضافة إلى مبدأ الجهاد في سبيل الله، ويعد هذا المبدأ أهم ما جاء به الإمام الجزولي، فهو يحث على مواجهة الدخيل الأجنبي، وكان يردد على أتباعه «دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله »[12].

وبانتشارها كان على أصحابها أن يقيموا أماكن خاصة لتثبيت أفكارهم وأعمالهم المحددة بحيز يُدْعَى «الزاوية» لها نظام خاص وبرنامج يُسَيِّرُ شؤونها، فهي بمثابة مركز العلم والمعرفة .

وقد انطلق الإمام الجزولي في تأسيس طريقته داخل المجتمع على أسس تربوية استقت مكوناتها المرجعية من الكتاب والسنة خاصةً فيما يتعلق بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره مطلباً أساساً من متطلبات الدين في التغيير والإصلاح بغية استيفاء شروط الخيرية التي في جاءت في قول الله تعالى:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[13]وامتثالاً لهديه صلى الله عليه وسلم، حيث يقول:«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[14]. والتشابه في المعطيات التاريخية لا يعني (الافتراض) بالضرورة كما يثبت ترمنجهام Trimingham بل يدل على وحدة الأصل والمكونات[15].

كما استمدت الطريقة هذه الأصولَ التربوية من الطبيعة الحيوية للدين الإسلامي والتي تعتمد على علاقة الفرد بخالقه بعيداً عن توصيات الجماعة أو المذهب أو الارتكان لسلوك الفقهاء وتفاسيرهم وتأويلاتهم . أصولاً تتسم بالتربية المحافظة والمتفق عليها: التوبة والرجاء والقناعة والورع والصبر وجهاد النفس وترك العباد والخوف والحزن والزهد والتوكل والرضاء بالقضاء والقدر .

(12) العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1420هـ-1999م، الجزء الخامس، ص48 .

(13) سورة آل عمران، الآية (110) .

(14) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، دار الفكر، بيروت، 1398 هـ-1978م، ص69 .

(15) Trimingham , Ahistory of Islam in West Africa , London 1970.

واستهدف الإمام من دعوته تجديد الفكر الصوفي وإصلاحه، علاوة على «إحياء» المبادئ الشاذلية . فلم يعد التصوف حبيس الكهوف والزوايا، بل انخرطت الجزولية واكتسحت جميع مناحي الحياة السياسي منها والاجتماعي وغيره في العصور التالية لحياة الإمام الجزولي .

وترتكز الطريقة الجزولية على مبادئ رئيسية يمكن حصرها فيما يلي :

أ . الدعوة إلى التوحيد على وفق مذهب أهل السنة والجماعة .

ب . التمييز بين علمي الظاهر والباطن .

ج . ضرورة وجود شيخ للمريد التائب يقتدي به يكون عالم بالظاهر والباطن .

د . المعرفة الصوفية : وهي حدسية، تتميز بقوة اليقين، وكشف الحجاب، ومحو الشكوك والأوهام .

هـ وضع الجزولي آداباً للمريد إزاء شيخه، أصبحت فيما بعد بمثابة قانون لمن رغب في الانخراط في سلك الطريقة الجزولية .

و . تنحصر أوراد الجزولية في الهيللة والحوقلة والاستغفار، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالصيغ التي دونها الجزولي في دلائل الخيرات .

2 . الجزولية والجدل :

نهج الجزولي نهج شيخه الشاذلي فيما وضعه لمريديه من مبادئ تجعلهم في منأى عن التشاحن والبغض والكره، أو الجدال فيما بين أتباع الطريقة الواحدة، أو بين الشيخ ومريديه، أو فيما بين أتباع الطريقة وغيرهم من خارج الطريقة، وذلك لنشر مبدأ الحب والإخاء والمساواة والتسامح داخل الطريقة بخاصة وبين أفراد وجماعات المجتمع الواحد عامة . فقد أقام الجزولي جماعة الجزولية على استخدام لغة الحب واحترام الآخر وقبوله . فالتصوف بتسامحه وطقوسه وشيوخه .

3 . مؤلفاته وتراثه «رموز صوفية»:

كان لمؤلفات الإمام الجزولي الدور الكبير في نشر التصوف والإقناع به؛ وهي وإن كانت تبرز في مجملها مدى علم وتصوف الإمام وحرصه على التعبير عن غايته الدعوية لأتباعه ومريديه في حياته ومن بعده؛ فإنه أيضاً وطبقاً للمبدأ الصوفي الشهير (من ذاق عرف)؛ فإنه يعبر عن أذواقه ومعارفه بأسلوب سهل مبسط، كما أنه غالباً

ما يتحدث عن مفاهيم التصوف ويدافع عن سنية مشربه المالكي ثم الشاذلي، وبالتالي تظهر من خلالها حرص الإمام على تقديم تصوف سني عملي قائم على المجاهدات، وترجمتها في صورة عملية، وهو ما يعد من أبرز الدلائل على غايتها الدعوية.

ومن أهم ما وقفنا عليه في هذا البحث فيما خلفه الإمام الجزولي مجموعة من الكتب والرسائل من أهمها :

- **دلائل الخيرات** : احتل كتاب «دلائل الخيرات» أهمية بالغة في حياة الصوفية في المشارق و المغارب وعبر العصور والأجيال . حيث حرصوا بشكل أو بآخر على قراءته، أفراداً وجماعات، في المساجد أو البيوت، ومتفانين في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومدح سنته ورسالته، وعدوه من الكتب العظيمة الصالحة لكل الأزمنة بما يحمله من بركات وكرامات مثلت معتقداتهم على مر العصور . وهو كتاب شهير بين الأتراك بأسماء مختلفة مثل («دلائل شريف» و»دلائل خيرات» و«دلائل»)[16].

- الزهد : مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش .
- حزب سبحان الدائم : والمسمى بحزب التوحيد أيضاً .
- رسالة النصح التام لمن قال ربي الله ثم استقام : مخطوط .
- رسالة عقيدة الجزولي : مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط .
- رسالة أجوبة الدنيا والدين : مخطوط بالخزانة العامة بالرباط .
- مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات .
- حزب الجزولي. - حزب الفلاح. - حزب الحمد. - الوظيفة الربانية .

4. **تجليات الإمام وإلهاماته :**

الشيخ العالم العارف الولي الصالح القطب، كان فقيهاً ألف في التصوف، وله كتاب دلائل الخيرات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عمت بركته الأرض، قال بعضهم في وصفه: نخبة الدهر ووحيد العصر محي الطرقة بالمغرب بعد درسها وشمس الحقيقة عند طمسها[17].

(16) أحمد صبحي فرات، بعض مخطوطات «دلائل الخيرات»، المكتبة السليمانية العامة، استانبول(بتصرف).
(17) أحمد بابا التنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، مرجع سبق ذكره، ص545 .

ومن أهم الأسس التربوية التي ساعدت الجزولي في إنجاح مساعيه في التصحيح وفي تربية مريديه هو الظهور بمظهر «القدوة الحسنة» التي دفعت أتباعه ومريديه إلى التثبت من مصداقية الأهداف التي دعا إليها الجزولي في سعيه لتحقيقها وجدية البواعث المحركة لها ممثلة في شخصه كشيخ وقيادي ورئيس ومعلم وإماماً لأتباعه، وبتصويب النظر في سلوك الإمام الجزولي نجده قد اكتسب المصداقية عند أتباعه وقواعد التبعية أو التحتية بينه كشيخ مربي وبين أتباعه ومريديه. فالشيخ الجزولي عرف في أوساط محبيه بالأدب والتواضع الجم فقد كان شديد الورع، كثير التأمل دائم التحري للحلال في طعامه وشرابه، بجانب ذلك كان مشاركاً بنفسه في الأعمال الجهادية حيث استشهد وقتل مسموماً كما ورد في أكثر المراجع والتراجم التي ترجمت له ولحياته(×).

كما مثل الشيخ القدوة الحسنة لطلابه ومريديه المجاهدين، فقد كان بدوره ورعاً متواضعاً على سعة علمه وعلو مكانته، فكان دائم تجديد النية والعهد مع الله على الإخلاص، كما كان الإمام ذو بشاشة وطلاقة وجه وحسن خلق، إذا تحدث أنصت إليه الناس، فلا يضجر ولا يحقد ولا يسأم من أحد. كان صلباً في الدين لا تأخذه في الله لومة لائمة، يحكم بالقسط والعدل ولو في القربى، لا تأخذه حمية الجاهلية بل لا يزيغ عن الحق. وقد لفت بورعه أنظار أنصاره وقد عرف بين أقرانه منذ سنوات الطلب الأولى بالورع والزهد والتقى.

ومن إيثار الشيخ على نفسه :«كان الشيخ الجزولي ببلاده وقت قتال انفصل فيه الصفان عن قتيل تبرأ كل من قتله ولم يحضره هو فأراد إصلاحهم فقال لهم : أنا قتلته، وعادتهم إخراج القاتل من بينهم فيصطلحوا فخرج لطنجة فلقي بها صديقة فمنعته من سفر الشرق، وكان يحفظ فرعي ابن الحاجب فرجع لفاس وقيد بها دلائل الخيرات وفيها لقيه الشيخ زروق[18].

بجانب هذه الصفات السلوكية الرفيعة المنبثقة عن قيم الدين الأخلاقية وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، توفرت في الشيخ بعض صفات القيادة الكاريزمية، فالشيخ الجزولي عرف بالحزم والقوة في اتخاذ القرار على الرغم من بساطته وتواضعه، فقد كان مسموع الكلمة مهاب الجانب، ويظهر هذا في كثير من توجيهاته وخطبه الجهادية وفي استجابة المرابطين لهذه التوجيهات. فليس بغريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلح أو زعيم سياسي، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولي من أولياء

(×) ذكر المهدي الفاسي القصري في «الممتع»: إن سيدي الجزولي جمع بين الصديقية العظمى والشهادة لأنه مات في جزولة مسموماً، وأنه قبل ذلك كتب على جدران بيته هناك كلمة «الموت» مئات المرات حتى غطت الكتابة كل الجدران.

(18) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، مرجع سبق ذكره، ص545 .

الله وبدءوا ينسبون إليه الكرامات وكانت تحفظ فتاويه وأجوبته فلا يعدل عنها ، بل ظلوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة بهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته .

وهكذا كان الجزولي في نظر أتباعه رجلاً مقدساً ، وبالتالي أضفيت روح القداسة علي آثاره المكتوبة وكل ما هو منسوب إليه ، وقد عُدَّ حَمْلَ محرراته وحفظها وتلاوتها نوعاً من التبرك فاض على شرق البلاد وغربها شمالها وجنوبها . ولهذا نجد مصنفاته قد ازدادت أهميتها وقداستها وصار أتباعه يسعون لما كتبه وما خلفه من آثار (×).

5. الطريقة والمجتمع :

أمام تزايد خطر التهديدات التي كانت تهدد الإسلام بالمغرب ، وأمام عجز بني مرين للتصدي ، وقع تحول هام في نشاط المريدين من أتباع الطرق الصوفية في المغرب . حيث تنبه مشايخ الطرق الصوفية ومريديهم إلى ضرورة القيام بعمل إيجابي لإنقاذ الوجود الإسلامي في المغرب .

وكانت الطريقة الجزولية من أبرز هذه الطرق الصوفية التي أَثَّرَت إلى حد بعيد في مجريات الأحداث السياسية . إذ هم من الأوائل الذين ارتبط اسمهم في أذهان الناس بالولاية ولقب الشرفاء . فانتشرت الزوايا والرباطات الجزولية في كل مكان ، وكان للجزوليين أثر بعيد في إذكاء الحماس الديني الذي انتفع به الوطاسيون في صراعهم مع البرتغاليين . فقد تفرع عن الطريقة الجزولية الطرق الآتية :

(××) الشيخ الجزولي : هو رابع رجالات مراكش في ترتيب الزيارة وزيارة ضريحه المخصوصة تكون يوم الجمعة الذي تختتم فيه القراءة الأسبوعية لكتاب دلائل الخيرات ، هذا الكتاب كان الفرسان يحملونه صحبة القرآن الكريم على شكل قلادة فوق ثيابهم الفاخرة في لعبة الفروسية (التبورضة) .

-	الطريقة التباعية نسبة لشيخها عبدالعزيز التباع	-	الطريقة العيساوية نسبة للشيخ الكامل محمد بن عيسى	-	الطريقة الغزوانية نسبة للشيخ عبدالله الغزواني
-	الطريقة البعمرية	-	الطريقة القسطلية	-	الطريقة الفلاحية
-	الطريقة الوزانية نسبة للشيخ عبد الله الشريف العلمي الوزاني	-	الطريقة الشرقاوية	-	الطريقة الناصرية
-	الطريقة الدرقاوية	-	الطريقة التيجانية	-	الطريقة الغازية
-	الطريقة الحمدوشية نسبة للشيخ بن حمدوش العلمي المجذوب	-	الطريقة الحنصالية	-	الطريقة الكتانية
-	زاوية سيدي رحال الكوش	-	الطريقة الريسونية نسبة للشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن يسون	-	الطريقة البقالية نسبة للشيخ محمد بن هلال الحاج البقالي

ولم يأخذ السادة المذكورين عن الشيخ الجزولي مباشرة، وإنما اتصلوا به عن طريق من أخذ عنه أو من أخذ عمن أخذ عنه، وإنه وإن كانت هذه الطرق مغربية المنشأ إلا أن فروعها في المشرق والجنوب والشمال من الكثرة بمكان .

والسائد حسب الباحثين في هذا المجال أن الطريقة التي بشر بها الإمام الجزولي منذ أن حل بأسفي تعرف بالجزولية الشاذلية، وذلك أن الجزولية ليست إلا تتمة للشاذلية، رغم أن الشيخ الجزولي عمل على ملائمتها لأرض الواقع في محاولة لتطويرها، وإصلاحها، وإزالة ما علق بها من شوائب أخرجتها عن روح كنهها الصوفي الذي يعتمد على الذكر الجماعي داخل الزاوية وتربية السلوك وما اتصل به من خلاله على مراعاة الطباع والألحان والأوزان، وكذا الصحبة .

وقد مثل ضريح الجزولي وزاويته معلماً أساسياً في حياة المجتمع المغربي بخاصة والمجتمع الإسلامي بوجه عام . باعتباره أحد أماكن التعبد بالمدن القديمة ومزاراً دينياً ورمزاً مقدساً في وقتنا المعاصر . حيث لعبت زاوية الإمام أدواراً هامة ومعقدة في حياة الجماعة الإنسانية، دينياً(روحياً)، ووطنياً(الجهاد ضد المستعمر)، ونفسياً(البركة وطلب الاستشفاء من الأمراض).

فقد بدأت دعوة الإمام الدينية والتربوية (العلمية والعملية) ارتباطاً بالزاوية باعتبارها مؤسسة تعليمية إسلامية خاصة هذا إلى جانب المسجد والذي يأتي على رأس المؤسسات الدينية التي انطلق منها الجزولي في نشر دعوته الصوفية لنشر الفكر والمنهج الشاذلي، والتي يمكن تناولها على النحو التالي :

أ. المسجد :

في هذا الجزء من المغرب العربي، وخاصة تلك البقاع التي وطأها الإمام الجزولي خلال مراحل حياته انتقالاً لطلب العلم ثم لنشر أفكاره ودعوته التربوية في محاولاته لإصلاح وتغيير ما فسد من القيم الدينية والخلقية، احتل المسجد المؤسسة الأولي التي تعلم بداخلها الجزولي هذه القيم وتأصلت بداخله جذورها، حيث لم تقتصر رسالة المسجد منذ فجر الإسلام على أداء الصلوات فحسب، وإنما كانت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مدرسة للعلم، والتعلم والتربية، بشتى مناحيها وظل المسجد يؤدي رسالته التربوية التعليمية حتى بعد استقلال المدرسة عنه في القرن الرابع الهجري حسب رواية المقريزي[19]، وبالتالي كان تأسيس المسجد في مختلف البلاد يهدف ويعني بدءاً التعريف بالإسلام والإعلام بحركة انتشاره ثم تواصلت مهمته لتثمر التمكين له ديناً ودولة، عقيدةً وشريعة.

لذلك انطلق الإمام الجزولي بعمليته التربوية في المغرب من المسجد كأول قاعدة لانطلاق القيم الإسلامية التي تربط الطريقة بالمجتمع، وتعمل من داخله لصالح هذا المجتمع.

ب. الخلوة الصوفية (الجزولية) :

مثلت الخلوة الصوفية (الجزولية) مدرسة مستقلة في كثير من الأحيان، وظلت تقوم بمهامها التربوية والتعليمية بجانب المسجد، وتعددت «الخلوات» بتعدد القائمين على أمرها من أتباع الشيخ الجزولي فيما بعد، داخل الزوايا[×]والأربطة[××]الصوفية في القرن التاسع الهجري، تخصصت في تعليم المريدين أمور دينهم كالعقيدة والفقه والحديث الشريف وعلوم التصوف وغيرها، والتي عكست المكانة الاجتماعية والدينية التي حظي بها الشيخ الجزولي وأتباعه وطريقته التي انتشرت في شتى أنحاء المغرب العربي لتمثل صورة لفكر الشيخ الجزولي رائد هذه المدرسة الصوفية والداعي إلى الإصلاح والتنمية بأشكالها المختلفة على هدى سيده وشيخه أبو الحسن الشاذلي.

---

(19) آمال حمزة المزروعي، النظرية التربوية، جدة، 1402هـ - 1982م، ص 125.

(×) الزوايا جمع زاوية، وهي موضع العبادة. أنظر: الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس، 1987م، ص 34.

(××) "الربط" جمع "رباط"، أسس في أول الأمر كمنشأة عسكرية، وأخذ اسمه من المرابطة في سبيل الله، ومنه سميت دعوة "المرابطين" ودولتهم، وسميت مدينة الرباط في المغرب، التي كانت على حدود الدولة الإسلامية، وكانت مأوى للمجاهدين في سبيل الله يؤهلون دينيا وروحيا بجانب تدريبهم عسكريا للجهاد والدفاع عن حدود الدولة الإسلامية. وقد أدى توقف حركة الفتوحات الإسلامية إلى تقلص دور الأربطة، وزاد في هذا تغير نمط الجيوش الإسلامية، وهو ما أدى إلى تغير وظيفة الأربطة، وفقدها لطابعها الحربي، وصارت لها وظائف متعددة؛ حيثتغلبت عليها الصفة الدينية وحدها، ومع انتشار التصوف تحولت رلى دور للصوفية ما جعل مصطلح "رباط" مرادفا لمصطلحي "خانقاه وزاوية". أمظر للمزيد: أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، إسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت)، ص 291.

هذه الخلوة الجزولية التي صارت مصدراً للإشعاع الديني والفكري، والإلهامات الإبداعية الخالصة في الصدق والتجرد والعمق والنقاء. فهي زفرات عقل، تصاعدت في لحظات خلوة مع نفس كبيرة حملت هموم الأمة الإسلامية، بل والإنسانية، تعبدت إلى الله سبحانه وتعالى، في محراب التفكر والتدبر والتعقل فيما آلت إليه أحوال المسلمين، كطليعة تعلق عليها الأمة أغلب الآمال في النهوض المنشود.

فقد كانت الزاوية المكان الأنسب والأرحب لتدوين كتابات الإمام محمد بن سليمان الجزولي الصوفية التي سميت حينها بالطريقة الجزولية، بعدما استوقفته مدينة أسفي في رحلته ببلاد المغرب قادماً من تيط الأمغاري التي قضى فيها قرابة أربع عشرة سنة ليحط الرحال بعد هجرة مضنية برباط أسفي كما تذكر المصادر التاريخية، هناك أنشأ الشيخ الجزولي زاويته التي مكث بها أربع عشرة سنة، حيث اشتهر بالتقوى والصلاح، فظهرت منه الكرامات شدت لها العقول وشدت له الرحال قصد النيل من هذه الكرامات، وقد قام خلال هذه المدة بترسيخ الفكر الصوفي في حياة أتباعه سلوكاً وممارسةً والعمل على تربيتهم تربية خاصة تأخذ منطلقاتها من مبادئ فلسفته في التصوف المبنية على الخير والصلاح ومرتكزة في أسسها على الطريقة الشاذلية التي كانت مرجع الإمام، وبالتالي عمل على نشرها بين أوساط أتباعه ومريديه، وفي هذا الإطار أورد العديد من الباحثين في مجال التصوف أن الإمام الجزولي أخذ بالشاذلية، وصار مؤهلاً لنشرها، بشهادة شيوخه في دكالة، و خاصة منهم آل أمغار في رباط تيط.

كما اضطلعت الزاوية الجزولية، بحسب العديد من المصادر والمراجع، بأدوار أساسية في نشر الوعي الصوفي بالمنطقة، انطلاقاً من جلسات الذكر. ولشدة ارتباط هذه (الزوايا) بوجدان المسلمين في هذا الجزء من المغرب صارت تنتسب إليها بعض المجموعات السكانية، واستبدلت بدلاً من ألقاب العائلات ألقاباً ترتبط بالطرق والزوايا الصوفية الموجودة داخل مجتمعاتهم؛ لتكون من خلالها مجموعات قائمة بذاتها توفرت على أعمال الدعوة والتعليم، وأخرى تطلع بمهام الجهاد ضد الاستعمار، كشرائح اجتماعية يجمع بينها، على اختلاف أعراقها، حب العلم والعمل والجهاد للمستعمر.

وقد اعتمد مؤسس الطريقة الجزولية في نشر مبادئه على نخبة من التلاميذ / الشيوخ، وفي مقدمتهم: تلميذه عبد العزيز التباع الذي التقى به بمدينة مراكش رغم أن علاقة الجزولي بمدينة مراكش كانت واهية، إذ لم يزرها إلا مرة واحدة في حياته (صاحب القراءة التباعية)، وعبد الله الغزواني (صاحب القراءة الغزوانية)، وعبد الكريم الفلاح، وعبد الرحمن الفاسي، ومحمد بن عيسى المعروف بالشيخ الكامل أحد مشايخ القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي، وسيدي أحمد الحارثي، ومحمد السهلي أمكراز، وسيدي عمرو بوعوادة. والذين شكلوا حائطاً منيعاً للدفاع

عن طريقتهم، والتقدم بها والارتقاء بها للمحافظة على تراث شيخهم الجزولي والتزاماً بالعهد الذي قطعه عليهم عند رغبتهم في الدخول إلى طريقته و اتباع منهجه الإصلاحي الذي شمل كافة مناحي الحياة .

وبفضل هؤلاء الأتباع استقطبت الطريقة الجزولية جميع فئات المجتمع، وتجاوز نفوذها دولة «الحدود السياسية»، حيث تعدت موطنها الأصلي، كما أنها شكلت مدرسة تربوية كان هدفها إحداث «ثورة» أخلاقية إحيائية وتجديدية؛ بالإضافة إلى أنها شكلت جبهة للمقاومة والجهاد ضد المستعمر .

ثالثاً: ثورة الإمام الجزولي :

بداية نقصد بالثورة لدي الإمام الجزولي هي الثورة الغريزية، أي أن هناك رد فعل طبيعي من أجل الحياة والسلطة التي قمعت هذه الغريزة، وهذه الغريزة «الإرادة الذاتية» أو بتعبير آخر «الحرية» بعد أن وصلت إلى مرحلة استحالت فيها الحياة عبرت عما بداخلها في شكل ثورة «قولية أو سلوكية»تهدف إلى التغيير والإصلاح التجديد .

فالرغبة في التجديد ليس صنعة وليس أمراً يمكن تعلمه، وإن كان التعليم يصقله ويلطفه ويمكنه من الوصول بأحسن الطرق لأهدافه . فالإصلاح والتجديد هبة رحمانية ومنحة علوية أو قل هو استعداد فطري، تتنزل على العقل الإنساني فتكسبه الإرادة والقوة للأخذ بالمشروع المطروح، والاستعدادات الفطرية تتفاوت بين الناس، فقد يكون كثير من الناس على تقوى وشجاعة الإمام الجزولي ولكن يذهبون دون أن يسمع بهم أو حتى شعوراً بدورهم . فثورة الجزولي أدت إلى حراك مجتمعي رهيب ملأ الدنيا وشغل الناس، وقامت على هذا الحراك مدن ودمرت أخرى نتيجة لهذا الحراك .

ومنذ بداية الحركات الاستعمارية لبلاد الأندلس وباقي الدول العربية والإسلامية، بدأ العالم الإسلامي كله يعمل في تمهيد السبل لوقوع التجديد، فالخطاب الإسلامي السائد وبناء المساجد وبروز الحركات والجماعات الإسلامية الشاخصة والفائزة إنما هي تمهيد لوقوع التجديد، عبر شخص أو مؤسسة أو جماعة . والتي كانت أهم متطلبات التجديد في القائم به هي :

- الانطلاق من مطلوبات الثقافة الإسلامية وعلى قدم في علمها وتاريخها. وأن تكون القيادة عارفة وملمة بمطلوبات المرحلة وأولوياتها .
- أن تكون له الإرادة والهمة مع المشروع لتزداد فرص النجاح ويسهل مهمته.
- أن يكون سليل أسرة معروفة أو بيت دين أو قائد يبرز من بين صفوف جماعة غير مجروحة.

- أن يكون حاله ميسوراً، بحيث لا يشغله كسب العيش عن مطلوبات الجهاد والتضحية والعيش للناس ومع الناس وبالناس .
- أن تصادف دعوته القبول من الجماهير ـ وأن يكسب النخبة القادرة على تعميق المبادرة وتهيئة فرص النجاح لها .

1. ثورة صوفية :

شكل التصوف الإسلامي طوال تاريخه المضيء المنتصر قوة ملهمة للفداء والتضحية. وهو الروح الصانعة للعزمات والوثبات وهو الدرع الذي يحمي الأخلاق ويصون العقائد ويحول بين الناس وبين التخلل والتفكك. لذلك كان التصوف عند الجزولي جهاداً في أعلى درجاته والعلم في أصفى موارده والخلق في أعلى مثله، والإيمان في أسمى أنواره وإشراقاته وليس ضعفاً وانعزالاً.

فقد أدرك الإمام الجزولي منذ أن بدأ حركته الإصلاحية في المغرب أهمية الالتزام بمنهجية مرجعية لدعواته الإصلاحية هذه، فأعلن منذ البداية انطلاق دعوته من الأصول الثابتة للدين والعقيدة على نهج «الكتاب و السنة»، وشكل هذا الالتزام بالنسبة لهذه الحركة غاية ووسيلة في نفس ذات الوقت، أما الغائية فتتأتي من ماهية التصحيح باعتباره عملاً تعبدياً في حد ذاته باعتباره مرحلة من مراحل (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وأما كونه وسيلة فيجيء من تبرير ما قد يصاحب التصحيح والتغيير من عوارض قد تعترض مساره فيحتاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندئذ إلى معالجات حاسمة قد تنتهي بإعلان«البراء»ونقض (الولاء) بإعلان الجهاد .

وقد تأكدت هذه الوسيلة في رفض الإمام الجزولي سياسة السلطة الوطاسية في تعاملها مع المستعمر لبلاده ومووالاتهم، بما جعل من موقف الإمام الجزولي مبررا للوقوف ضدهم ورفض سلطانهم بل ومساعدة دولة السعديين في الانتشار والفوز على دولة الوطاسيين بل ونهايتها، لما في ذلك من نصرة للمسلمين فيما بينهم ودعماً لهم على جهاد المستعمر الأجنبي قولاً وعملاً ودفع هذا المستعمر للخروج والجلاء عن أراضيهم وهو ما تحقق فيما بعد على أيدي أتباع الإمام الجزولي. نصرة وتحقيقاً لأمر الله تعالي في كتابه العزيز :﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[20] .

---

(20) سورة المائدة الآية 80.

ويمكن القول بأن كل هذا التراكم التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية وجهود التجديد مهدت لبروز الشيخ الجزولي رائد التجديد في المغرب، الذي نجح في التنظير والتنزيل بمعنى أنه وضع الأساس الروحي والفكري لدعوته في مؤلفاته وأشعاره، كما تمكن من خلق الجماعة أو النواة التي آمنت بأطروحاته وأفكاره وتربت عليها .

وجاء اهتمام الشيخ الجزولي بقضايا الإصلاح والتجديد يلخصه في المقدرة الفكرية والعقلية على الإحاطة بعلوم الشريعة والأصول والفقه واستنباط الأحكام وتقديم الفتوى والتعليم والتربية لإحياء النفوس، وبفضل جهوده في المغرب العربي كانت له مدرسة تجديدية إسلامية، قائمة على خصوصيات المجتمع المغربي، وإن جمعت القسمات المشتركة للتراث الإسلامي بينها وبين بقية الحركات العلمية الإسلامية .

مما دفع الجزولي إلى التركيز على أهمية إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الجهاد لاجتثاث الشر بالكلية، وشخص الشر في انتشار الفتن والبدع والفساد والغفلة ولكنه كذلك ونتيجة لتربيته الصوفية، يعطي استخدام الرفق واللين أولوية، ورفض التقولب في مذهب واحد، كما دعا لفتح باب الاجتهاد وسعى كذلك لملء فراغ الدولة بإقامة شبكة تواصل منظمة وبتراتيب إدارية صوفية لوصل المجتمع رأسياً وأفقياً . وربما كان مرد نجاح التصوف، إلى العلاقة الروحية التي تقوم على البيعة الروحية والالتزام بمنهج الشيخ الذي نجح في نشر قيم الذكر والأوراد وتسليك الأتباع في الطريقة الجزولية ومحاربة حظوظ النفس .

هذا وقد تميزت الحركة الفكرية في المغرب العربي بقوتها وتأثرها بالعقل المصري في ذلك الوقت ـ ولكنها كانت لها خصوصية في استقلالية الحركة الفكرية عن السلطة السياسية، وأجازت الجهاد ضد الحاكم الظالم .

وقد كان وقوع تجديد مجمل أوضاع التدين المجتمعي في المغرب من نصيب الشيخ الجزولي وطريقته، حيث أصبحت الطريقة مدرسة قائمة بذاتها، وربط علماء المنطقة في القرن التاسع الهجري بين إسهامات هذه المدرسة والحديث الشريف الوارد في «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[21].

وحينما أعلن الشيخ دعوته للجماعة ونصرة الدين الإسلامي كان عمره أربعين عاماً وحينما هاجر كان قد بلغ الخمسين وعندما أحرز أهم انتصاراته كان عمره 54 عاماً. وقد نجح في إقامة دولة صوفية عمّرت لما يقرب من خمسة قرون منذ أن دعا إليها وحتى الآن .

(21) رواه أبو داود في سننه، رقم 4291.

وقد أقام الجزولي جماعة الجزولية على ثلاث مراحل، مرحلة تكوين ودعوة، ثم الهجرة «الداخلية»، ثم الجهاد، واقتضت المرحلة الأولي عدم إثارة الدولة الحاكمة والتدرج في الوصول لمرحلة الهجرة - والمقصود بالهجرة قيام مجتمع منفصل، دار إسلام، مؤمن بقيم الدعوة ومبادئها مستعد للدخول في المرحلة الثالثة وهي مرحلة الجهاد وهي السعي بالقوة لإقامة الدولة المسلمة . وفي كل المراحل تم استخدام اللغات المحلية، بالإضافة إلى اللغة العربية وتوظيف الشعر والنثر الصوفي بهذه اللغات، فضلاً عن استخدام الشيخ الجزولي للغة راقية في دعوته ألا وهي لغة الحب واحترام الآخر وقبوله. فالتصوف بتسامحه وطقوسه وشيوخه .

كما قام الإمام الجزولي مع أتباعه المقربين منه بفتح المعارف الدعوية وتوفير المادة الفكرية للدعوة . والكتب والرسائل المرصودة للشيخ الجزولي تبلغ الكثير والكثير تأليفاً للشيخ شعراً ونثراً أو تعليقاً عليها من أتباعه ومريديه فيما بعد، ومثلت هذه المصادر معلماً هاماً في تاريخ الفكر الإسلامي، فقهه وسياسته وإدارته، واقتصاده ودعوته وعلومه المختلفة . وتم توظيف المعرفة لتعليم الناس رجالاً ونساءً أداءً لواجب التبليغ وقياماً بمطلوبات الدعوة الجزولية.

ودعا الشيخ إلى التوسع في توظيف المسجد واستنطاق العلماء، خصوصاً في ظل شيوع الفتن والبدع حيث لا يجوز المساكنة والمهادنة، ودعا إلى حضور الفقيه في كل زوايا وركن ومسجد، آمراً وشارحاً وناهياً . والتجديد عند الشيخ الجزولي نهج متكامل تتداخل فيه التربية والأخلاق والسياسة والعسكرية «الجهاد».

وبهذا الفهم دخل الشيخ وطريقته منتدى أو حقل التجديد الإسلامي، لقيادتهم حركة التجديد في القرن التاسع الهجري بفكر ثوري على الواقع الذي هادنت فيه الدولة المستعمرين وعملت على استرضائهم لتستمر بذلك في ظلم الرعية ونهب حقوقهم والعيث في الأرض فساداً مما استوجب معه إحياء فكرة الجهاد والدعوة من خلال منبر صوفي بالغ الأهمية هو منبر الطريقة الجزولية وداعي وعالم صوفي مفوه هو الإمام الجزولي الصوفي الجليل رائد عملية الإصلاح والدعوة للثورة من منطلق صوفي .

ويمكن القول إن الحركة الروحية والفكرية التي بذر بذورها الشيخ الجزولي، ظلت أهم مؤثر عامل في تشكيل العقل المغربي ومزاجه وتكوينه لفترة تقترب من مائتي عام.

2. ثورة اجتماعية :

إن تاريخ المغرب هو تاريخ سيادة التيار الصوفي بتعبيراته المختلفة، ولم يشكل هذا التيار محاضن للتربية الروحية فقط بل محاضن للجهاد أيضاً . لقد كانت الممارسة الصوفية هي الشكل السائد للتدين في المجتمع المغربي .

فقد عمل الشيخ الجزولي المشروع التجديدي في المغرب في النطاق المجتمعي ولم يطمح لإقامة دولة «خلافة» على غرار ما حدث في مجتمعات أخرى كالسودان الغربي، ولربما كان السبب أن كيان الدولة المسلمة قد نهض واستتب قبل ذلك بكثير .

وعند قراءة كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" ـ الذي حققه الأستاذ أحمد توفيق ـ سنكتشف أن التصوف صار تصوف مجتمع ككل بدليل كثرة التراجم لرجال التصوف من علماء وعامة، وبالتالي صار التصوف مجتمعي وفيه نوع من التصدر والظهور، بمعنى أن أصحاب الخلوة انتقلوا من العزلة إلى العمل ومن العمل الفردي إلى نشر الطريقة الصوفية، فخرج المتصوفة من زاوية الإهمال إلى زاوية العمل، وهو ما سيظهر جلياً مع الدولة المرينية حيث سينتسب الفقهاء إلى التصوف، بل الأكثر من ذلك انتساب المرينيين أنفسهم للولاية وللصلاح، وأشرفوا على تأسيس عدة زوايا، كالزاوية المتوكلية بفاس والتي أقامها أبو عنان المريني الملقب بالمتوكل على الله سنة 754هـ، وقد أصبحت الزاوية في عصره :«محل الفضل والإيثار والرفق والإحسان، وملجأ للواردين وموردا لابن السبيل وكل ركب سار»، كل هذا حول الزاوية إلى مركز للإيواء والإحسان ومرفق كبير للأعمال الاجتماعية .

ويلاحظ المهتم بتاريخ المغرب الأقصى أن المؤرخين وتبعهم في ذلك الدارسون لم يعيروا الاهتمام اللازم لحقب تاريخية في شقيها الاجتماعي والصوفي، ومنها مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي (قبل1912م) وخصوصاً القرن 13هـ/19م في مجمله والذي يشكل الغلاف الزمني لحياة الإمام الجزولي محور هذه الدراسة .

ولاشك أننا حينما نختار «توسيع» رؤيتنا التاريخية وتنويع زواياها ونولي وجهتنا نحو بؤرة المجتمع وتفاعلاته اليومية نلتقي بالفعل بالدور الكبير الذي لعبه الشيخ الجزولي في شخصه تارة وممثلاً في طريقته الجزولية الصوفية تارة أخرى كوثبة من «الوثبات الحيوية» التي تعبر عن حركة المجتمع وتطوره «الذاتي». وفي تاريخ المغرب خاصة؛ من الشواهد ما ينهض دليلاً على تلك الوثبات الحيوية وعلى تلك التنظيمات الذاتية التي عبر عنها المجتمع المغربي من خلال تنظيماته الصوفية، خاصة إبان انحلال الدول وتراجع السلطة، وبالأخص في ظل اللامركزية التي عرفتها الدولة في تاريخ الإسلام عامة وتاريخ المغرب خاصة .

إن الشيخ الجزولي ما كان بإمكانه أن ينجح في دعوته وأن يصير «قدوة» لغيره لو أنه لم يسلك مسلك الإسلام نفسه في الابتعاد عن تلك «الرهبنة» المقيتة، ويبادر إلى مشاركة الناس حياتهم الخاصة والعامة، ويضرب لهم المثل في التخلق بمقام «الجمع»

الذي يقضي بتنزيل القيم والنماذج على مستوى ما يستطيعه الناس ويحيونه ويعيشونه. فكان الجزولي فردا من مجتمع الناس، يأكل ويتاجر ويتزوج كما يفعل الناس، لكنه في الآن نفسه كان يمثل قدوة لهم ونموذجاً يتطلعون إليه ويعملون بمتابعة مسيرته بينهم. مع انتباهه لما كان يجري في محيطه من تغيرات تخص حاضر العالم الإسلامي وتمس بالضرورة مستقبل الإسلام.

لذلك نلمح في الشيخ الذي عرف بحذره الشديد وبطموحه الإنساني الكبير وبتخطيه لمستقبل الطريقة والمجتمع في آن واحد؛ نلمح فيه قدرته على تخطي الحواجز والعوائق المكانية وقدرته الخلاقة على الحوار والتكيف. وبالتالي لم يظل حبيس المشاكل الوهمية أو القضايا الجزئية التي انحسر بداخلها الكثير من أهل عصره، حيث أدرك أنه لابد من تظافر الجهود قصد إعادة قطار الدعوة الصوفية على الطريق السليم وذلك لن يكون دون وعي هذا الصوفي بما يجري حوله ورصده لما يدبر من خطط استعمارية تهدف بالإطاحة بمجتمعه واستعباد أبنائه فكرياً وثقافياً، مكانياً وزمانياً، عن طريق الجهل والأمية تارة، وعن طريق الفقر تارة أخرى وهو الثالوث الذي تستغله إلى اليوم الدول المتقدمة حتى عصرنا الحالي، بقصد ومع سبق إصرار، من خلال استخدامها لكافة الوسائل المعاصرة والمتطورة للعودة بالمجتمع العربي والإسلامي إلى نقطة الصفر، وإلى التخلف حتى يظل قابع في ظلمات الفقر والتخلف والأمية.

لذلك نجد الشيخ الجزولي قد امتلك رصيداً فكرياً حقيقياً جعله قادراً على مواجهة هذا الغزو بالاعتراض علي سياسته تارة، وتعليم أبنائه والقضاء على أميتهم العلمية والدينية تارة أخرى، وتارة ثالثة بدعوة أبناء طريقته وأفراد مجتمعه للعمل الذي هو السبيل لتقدم المجتمع والرقي به والأداة الرئيسية لامتلاك الفرد سلطته من خلال امتلاك قوت يومه، وهي قيمة حض عليها أستاذ الشيخ ومعلمه الأول سيدي أبو الحسن الشاذلي وهي «قيمة العمل» قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[22]. وذلك بما تحلى به الشيخ من قدرة على الحوار و«الدعوة» الخالصة إلى الله والأمل في المستقبل.

حيث نجد الإمام الجزولي أكسب طريقته مظهراً اجتماعياً فوق المظهر الديني والصوفي لها الذي يهتم من خلاله بعمليات الإحسان وذلك بإطعام الطعام، والإيواء، والتكفل بالأيتام والتغلغل في المجتمع بكثرة المريدين والأتباع وبواسطة نفوذهم وسط القبائل (فض المنازعات).

(22) سورة التوبة الآية 105.

ولم يتخذ الإمام الجزولي موقف الإمام الداعي إلى الدين فقط ولكن ثورته على الواقع كانت ثورة إيجابية داعية إلى المشاركة المجتمعية والدعوة إلى العمل الإيجابي داخل مجتمعه بكافة أشكال التعاون المحرك الفاعل في دينامية المجتمع فكرياً وثقافياً . فقام بتعبئة الأفراد تجاه المشاركة المجتمعية بما يفيد مجتمعهم ويعمل على تقدمه وتحركه من حالة الجمود والركود إلى حالة النشاط والعمل التنموي والتقدمي بما يعود على المجتمع بالمنفعة العامة والخاصة على حد سواء، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ونشر قيمة الإيثار والمثابرة وحب الآخرين بواسطة المواعظ والرقائق، التي تعلي من خلال القيم الخلقية والروحية التي تسمو على حب الملذات والشهوات الدنية والدنيوية .

وقد قام الإمام الجزولي بهذه الدعوة من خلال عدة مستويات: دعوة وإقناعاً، وتنظيراً وتقعيداً، وتنظيماً وتأطيراً، في حركية واعية لا متناهية لرجالات التصوف بدأت تبلورها «كفئة ذات خصائص مميزة» لتغدو في القرون اللاحقة : الملاذ الروحي الأمثل للمجتمع، والإطار التنظيمي الأقوى له، ويكون لها بالتالي الدور المحدد في الحراك الاجتماعي، لا نزال نشاهد أثره القوي حتى الآن مما جذب نخبة من الباحثين، كل من موقع تخصصه، وبحسب توجهه وأدواته للنبش في تاريخ الصوفية «الشائك» باعتبار التصوف ظاهرة مجتمعية متطورة متجددة مما يجعلها عصية على التحليل العلمي، لا يكون خائض غمارها إلا على غرار من استنتاج خلاصة، أو إصدار حكم قد يصدق على مجموعة أو فترة دون أخرى .

وقد سعى الجزولي في إطار مجاهداته إلى الثورة داخل مجتمعه، وعلى أوضاع المجتمع فيما يرتبط بالطريقة وعلاقتها الداخلية في المجتمع المغربي، لذا سعى إلى التحرر من تلك البقايا الأيدلوجية، وذلك من خلال محاولة العودة بالخطاب الصوفي جملة إلى بيئته الفعلية، وأن يربط تاريخ التصوف بتاريخ المجتمع الذي انبثق منه، وأن يربطه بثقافته قولاً وفعلاً، محاولاً دمج طريقته الصوفية داخل الإطار المجتمعي لمدينته خاصة، وبالمجتمع المغربي بوجه عام . حتى لا تتقوقع الطريقة أو تهمش أدوارها ومريديها داخل المجتمع، ومن ثم تصبح عنصراً فعالاً داخل المجتمع، تسير في موكبه، وتتقدم به دائماً إلى الرقي والتقدم والازدهار .

فمن خلال الطريقة الجزولية حلت الصوفية محل العصبية القبلية حيث كانت الأساس الذي قامت عليه مختلف الدول التي تعاقبت على الحكم في المغرب، وحل الشرفاء محل السلاطين ، حيث أن انتظام الجماهير في مختلف الطرق الصوفية عمق في نفوسهم معاني الانتماء إلى أهل الإيمان والشرفاء، إذ كانوا في حاجة ماسة إلى عصبيات جديدة وروابط إنسانية واجتماعية تحل محل الروابط القبلية .

3. ثورة سياسية :

ظهر التنظيم الديني للطرق الصوفية التي سادت المغرب في أواخر عهد الدولة المرينية والعهد الوطاسي الذي نحن بصدد دراسته هنا متمثلاً في طريقتين كبيرتين كانتا هما سمة الطابع الصوفي في الحياة المغربية وهي الطريقة الشاذلية والقادرية وتعد الطريقة القادرية التي تأسست في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي على يد عبد القادر الجيلاني أوسع الطرق الصوفية انتشاراً، أما الطريقة الشاذلية فقد كانت في القرن السادس عشر الميلادي يقوم على رعايتها ويحمل اسمها البيت الجزولي وقد انتمت الأسرة السعدية بعد هجرتها إلى إقليم السوس لهذا البيت وطريقته، وأهّلَها دعوى الانتساب للأشراف للتطور بالتنظيم الصوفي الديني الجزولي إلى الدور السياسي في قيادة أحداث النزاع الأسري والقبلي والطائفي بين جميع المغاربة[23] وأحداث القتال ضد البرتغاليين والأسبان، وإن كانت الدعوة الصوفية قد تأخرت في المغرب الأقصى كي نرى في التدهور السياسي والاقتصادي الذي أصاب البلاد في القرن الخامس عشر فرصة لقيادة المسيرة الجهادية .

لقد كان مؤسسو الطرق الصوفية والزوايا والأربطة يبجلهم الناس ويحترمونهم لتقواهم وورعهم وشغلهم الشاغل بالعمل على تطهير النفوس والقلوب والارتقاء الروحي والتقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح وترويض النفس على تحمل المشاق، ودعوتهم الدائمة إلى جهاد المستعمر المحتل لبلادهم . وتعبئة المجتمع واستنهاضه ضد ما يحدق به من أخطار . وخاصة بعد ظهور الطريقة الجزولية التي أسسها الإمام الجزولي، ومساندة قيام الإمارة السعدية[24].

فقد ذاعت شهرة الشيخ الجزولي ودعوته الصوفية في جنوب المغرب النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي بصورة لم تشهد مثلها تلك النواحي المغربية . فالشيخ الجزولي ينتمي إلى جزولة إحدى القبائل السملالة الأمازيغية في بلاد السوس وقضى بعضاً من عمره في مدينة فاس قبل أن تتولى أسرة بني وطاس عرش المغرب بعامين أو سبع أعوام . ثم ترك مدينة فاس عائداً إلى بلاد الجنوب حيث ذهب إلى قرية تيست بالقرب من مدينة مازكان وتقابل بها مع شيخ زاوية أمغار ثم تركها بعد ذلك وتوجه للقاء أتباع طريقته إلى مدينة آسفى التي لم يمكث بها طويلا بسبب عداء حاكمها الشديد

(23) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، المغرب العربي بين وطاس، والسعديين وظهور الأشراف العلويين، دراسة في التاريخ الإسلامي، الجزء السادس، المجلد الثالث، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م، ص94.

(24) المرجع السابق نفسه، ص 95 (بتصرف).

له، ولأنه لم يكن يوماً مداهناً للنخبة الحاكمة في عصره، فعاد أدراجه إلى الصحراء البادية ليدعو لطريقته بين قبائل حاجة وشياظمة فتبعه كثير من الزوايا الصوفية .

واحتضن الإمام الجزولي مبدأ الجهاد في سبيل الله، والذي يعد أهم ما جاء به الإمام الجزولي، فهو يحث على مواجهة الدخيل الأجنبي، ويحفز على الجهاد ضد احتلال النصارى للشواطئ المغربية وعلى الثورة ضد الحكام الوطاسيين المتخاذلين وكان يردد على أتباعه «دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله». رغبة من الإمام في الحفاظ على السلم السياسي والاجتماعي والتوسط بين المخزن والقبائل والدول والإمارات. والمساهمة في تحرير الثغور المغربية.

ولقد كان موته في مدينة افغال علي بعد ثلاثين كيلو متراً من مدينة الصويرة باعثاً للجهاد ضد بقايا أسرة بني مرين ودفعاً لحركة الجهاد الإسلامي في وقت كانت تتساقط فيه البلاد في أيدي الأسبان والبرتغاليين لكنه مات فجأة وقد قيل أنه قتل بالسم عام 870هـ/1465م .

ولم يمنع موت الإمام الجزولي مواصلة الحركة الصوفية سعيها للانتشار بين أهالي المغرب لا سيما وأنه قد اشتهر من رجالاتها الشيخ عبد العزيز التباع الذي توفى في مراكش في فترة حكم ثاني حكام بني وطاس أبي عبدالله محمد البرتغالي . ثم خلفه على الطريقة الجزولية الشيخ الصوفي عبدالله الغزواني والذي وفد إلى مراكش قادماً من الشمال وكانت قد آلت إليه زعامة الحركة أو الطريقة الجزولية خلفاً للشيخ عبد العزيز التباع، وكانت الوشايات كثيرة من مشايخ عصره لدى السلطان أبي عبدالله البرتغالي الوطاسي لا سيما بعد أن أمر بالقبض عليه ورجال طريقته بعد أن وشى به الشيخ أبو عبدالله محمد بن غازي لكن الشيخ التباع استطاع الهرب واستطاع أن يواصل العمل في طريقته حتى بداية العهد السعدي[25].

والذي ينظر إلى ثورة الإمام الجزولي ومن بعده ثورة عمرو السياف على قاتلي الإمام الجزولي والتي ظلت عشرين عاماً، وزيادة أنصاره ومريديه ثم مواصلة السير على نهج الطريقة بعد وفاته، وقيام الشيخ عبد العزيز التباع ومن بعده الشيخ الغزوني؛ إنما يدرك أن هذه الثورة كانت بداية إحياء طريق العمل السياسي وربطه بالعمل الديني؛ لاسيما أنه في الجنوب في إقليم السوس وبالقرب من مراكش كان المجتمع الشريفي الإدريسي العلوي السعدي قد بدأ يدرك البعد الحقيقي للخطر الذي

(25) المرجع السابق نفسه، ص 97 .

يتعرض له المغرب من جراء الانقسامات الداخلية والأخطار الأيبيرية التي سيطرت على جميع المدن الساحلية ولم تترك للمغاربة غير مدينتي سلا ورباط الفتح، وكان دور الحركة الشريفة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي محاولة إطواء حركة الصوفية وزعامتها تحت لوائها وكذلك السيطرة على القبائل الجنوبية والعمل على إقصاء الحكم الوطاسي الذي لم يكن له أدني سند روحي أو صوفي أو ديني ولم يكن له عون إلاّ مساندة بعض القبائل، وأن الأسرة الوطاسية قد فقدت مقومات الكيان السياسي الحاكم وأنها قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والضعف يجعل الطريقة الصوفية تبحث لها عن قيادة تستطيع أن تمسك بزمام الأمور والوصول بالشعب المغربي إلى أهدافه في المحافظة على كيانه السياسي المزق في غرب العالم الإسلامي لاسيما أنه كان ما يزال ممسكاً بمقومات الدولة والعمل على رفع روح الإحياء الوطني لاسيما بعد أن تحالف الوطاسيون مع البرتغاليين المحتلين وهذا كان يسقط عنهم صفة الحكم الشرعي للبلاد[26].

وقام على حصارها في وقت كانت فيه المدينة تعاني من آثار سيول مدمرة لأمطار هذا العام 933هـ/1527م ولم تسقط المدينة في أيدي الوطاسيين بسبب صمود أهل مراكش ومساندة الشيخ الغزوني للسعديين وكان الشيخ الغزوني (عبدالله)شيخ الطريقة الجزولية في مراكش وخليفة الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع الذي خلف الشيخ محمد الجزولي في شياخة الطريقة الجزولية بمساندة ومساعدة السعدين على يد الشيخ عبدالله الغزوني وأنصاره مما اضطر الوطاسي إلى رفع الحصار عن مراكش للمرة الثانية في يونيو 1527م وفر عائداً إلى فاس[27].

ويتحدث الناصر السلاوي في كتابه (الاستقصاء عن أخبار الغزوة الوطاسية وحصار مراكش) فيقول:«إن الحصار دام على المدينة فترة طويلة وتحدث العامة إلى الشيخ أبي محمد عبدالله الغزوني وكان قد استوطن مراكش وراء رفات شيخه الجزولي بأن الحصار قد طال عليهم وأن الناس قد سئموا الحصار . فركب الشيخ في جماعة من أشراف الطريقة الجزولية الذين كان لهم زي خاص وسار وسط أصحابه حتى خرج من باب فاس (أحد أبواب مراكش) فوجد رماة السلطان الوطاسي أبي العباس الوطاس يرمون أهل البلد بالرصاص فوقف الشيخ وجاءت رصاصة في صدره قبض عليها بيده ثم عاد إلى منزله ولم يأت الليل إلاّ والسلطان الوطاسي يرفع الحصار عن المدينة ورحل إلى فاس بسبب قيام أبناء عمومته بالثورة عليه تأييداً لعمهم المخلوع أبو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي»[28].

(26) المرجع السابق نفسه، ص 98 .

(27) المرجع السابق نفسه، ص 41 .

(28) المرجع السابق نفسه، ص 41-42 .

هذا وقد حرص أحمد الأعرج بعد أن تزوج من ابنة الأمير محمد بن ناصر بوشتتوف والي مراكش على نقل رفات الشيخ الجزولي إلى مراكش؛ لضمان تأييد الأسرة الشرعية الهنتانية المالكة في مراكش واستقطاب أنصار الجزولية . فكانت هذه هي البداية الحقة للعصر السعدي . ومع مطلع القرن السادس عشر أسس محمد القائم الدولة السعيدية، بدعم من زعيم الطريقة الصوفية الجزولية التي أسسها الإمام الجزولي الصوفي الثائر .

خاتمة:

ومن خلال قراءتنا لتاريخ الصوفية بالمغرب الأقصى في العصر الوسيط الإسلامي، وبخاصة مجمل ما تم الوقوف عليه في حياة الإمام الجزولي محور هذه الدراسة ولبها؛ أمكننا الخروج بعدة خلاصات نجملها فيما يلي :

أ . مثلت الحركة الصوفية بالمغرب تطورا تلقائيا للمنحى الزهدي الذي عرفه المغرب منذ الفتح الإسلامي، كما استجاب هذا التطور الحركي الصوفي في صيرورته التاريخية لتغيرات اقتصادية وثقافية وسياسية أنتجت عدة إشكاليات، تعاملت معها الحركة الصوفية بانفتاح، وحاولت تقديم أجوبة وحلول لها من خلال : تكيف «داخلي» تمثل في تطوير «الذات الصوفية» لمضاعفة الوظائف والقدرات خصوصاً بإنتاج التنظيمات الصوفية منذ مطلع القرن السابع الهجري، ولم يتوقف هذا التطور إلى أن عرف أوجهه مع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي وتلامذته في القرنين الهجريين التاسع والعاشر وما بعدهما . ومن خلال تكييف «خارجي» تميز باندماج قوي في شرائح المجتمع خصوصاً المستضعفين لتقديم حلول لمشاكلهم اتسمت بقدر كبير من الواقعية والنجاعة لعلٍ أبرزها تنظيم الطريقة الجزولية وتفرع العديد من الطرق عنها المنتمية لها فكراً ومنهجاً وسلوكاً شيوخاً ومريدين .

ب . فيما يخص علاقة الصوفية بالسلطة : بدا لنا أنه من التسرع الحكم بأنها كانت «متشنجة» أو «مساندة» أو «مدجنة»، نظراً لطول الفترة المدروسة وتغير السياسات والمواقف . لكن الموقف الذي ظل ثابتاً طيلة هذه الفترة ولم يتغير مهما كان قرب الصوفية من السلطة أو بعدهم عنها هو «الاستقلالية أو الحرية»، هذا الثابت الذي حرص الصوفية عليه في «مشروعهم الإصلاحي للمجتمع» والذي جاء منسجماً مع نظرتهم للإصلاح المنطلق من منهج تربوي يجعل من إصلاح قلب المريد مناطاً ووسيلة لإصلاح حاله، وبالتالي إصلاح أحوال المجتمع الخلقية والثقافية والاقتصادية والسياسية، لذلك، فسواء قبل الصوفية لقاء السلطان أو

نفروا، وسواء أخذوا أعطياته أو رفضوا... إلا أنهم أصروا على أن تبقى أمورهم بعيدة عن تدخله، وهذا لم يمنع من التعاون معه بالنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومساندته في جهاد الأعداء . وهذا ما تمثل في الإمام الجزولي صاحب دعوة الإصلاح ومؤسس مدرسة التربية الصوفية في عصره، الذي دعا أولى الأمر بالمعروف ونهاهم عن المنكر، حتى إذا ما أيقن من عدم الجدوى في النصح، وخاصة بعد وقوفهم ونصرتهم للمستعمرين لبلاده، قام يدعوا إلى الجهاد لنصرة الحق ونصرة دين الله تبارك وتعالى، وذلك بوقوفه مع ثورة السعديين ضد الوطاسيين حتى كان النصر حليفهم .

ج . وعن علاقة الصوفية بالفقهاء : فقد تأكد لنا انطلاق الإمام الجزولي في نشر دعوته على أساسين لا ثالث لهما هم كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، دون أن تفرز اصطفافاً للفقهاء هنا وللصوفية هناك . هذا التوافق كان على أساس إقرار اختيارات مذهبية تمثلت في ترسيخ العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والمشرب الصوفي السني الشاذلي . تحقق ذلك بفضل المجهودات الكبيرة التي بذلها رجال العلم والتصوف في تأكيد سنية المذهب الأشعري في العقائد، وبيان فضل مذهب إمام دار الهجرة في الفقه، وحرصه على تنقية التصوف مما علق به من «بدع»، والعودة به إلى أصله السني باختيار المشرب الشاذلي لسنيته وشموليته وواقعيته ويسره، مما رسخ توجه المجتمع المغربي ونخبه نحو التوحد في العقيدة والسلوك والمعاملات .

د . إن رأي بعض الباحثين في التصوف الذين يعتبرونه «المحرك الحقيقي للمجتمع الإسلامي» فيه قدر كبير من الصحة، والمجتمع المغربي خير دليل على ذلك، إذ منذ انطلاقها، لم تعرف الحركة الصوفية تقهقراً ولا تراجعاً، بل تميزت بمجهودات لا نهائية لرجالاتها، وتكيفت مع مختلف الظروف لكنها لم تتوقف . وحتى في القرن الثامن الهجري الذي يصر عدد من الباحثين على تراجع الحركة الصوفية فيه بالنظر إلى غياب الأسماء الكبيرة لشيوخ الصوفية - في نظرهم - بينا أنه عرف إحدى أنشط مراحل التصوف بالمغرب من خلال مساهمات كبار العلماء في التأليف الصوفي، وأنها كانت فترة حاسمة في «مغربة» التصوف على المستوى العلمي التنظيري أدى في نهايته إلى إقرار المشرب الشاذلي . هذه «الدينامية» لرجالات التصوف مكنتهم من كسب المواقع، وحيازة قصب السبق في التأثير على أوسع شرائح المجتمع، وتوجيه ذهنياته وبالتالي المساهمة في التحولات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي عرفها تاريخ المغرب وخاصة على يد شيخها وإمامها محمد بن سليمان الجزولي الصوفي الثائر في عصره .

المراجع

1 القرآن الكريم .

2 ابن خلدون، المقدمة، بتحقيق المستشرق الفرنسي أ.م. كاترمير، عن طبعة باريس سنة 1858م، مكتبة لبنان.

3 أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، إسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت).

4 أحمد بابا التنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 963هـ-1036م، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، الجزءان 1-2، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس .

5 أحمد صبحي فرات، بعض مخطوطات «دلائل الخيرات»، المكتبة السليمانية العامة، استانبول .

6 الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس، 1987م .

7 العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1420هـ-1999م، الجزء الخامس، ص48 .

8 آمال حمزة المزروعي، النظرية التربوية الإسلامية، جدة، 1402هـ-1982م .

9 خير الدين الزر كلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء السادس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) 1980م .

10 شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ-1992م، 12جزء، الجزء 7 .

11 عباس الجراري، كلمات تقديم «الجزء الثاني» جمع وتقديم: حميدة الصائغ الجراري، منشورات النادي الجراري، 38، ط1، محرم الحرام 1428هـ - يناير 2007م، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب .

12 عبدالرحيم النبوي، آسفي نيوز جريدة الكترونية :

http://www.safinews.com/index.php?op=suite&art=2349

13 عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، المغرب العربي بين وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين، دراسة في التاريخ الإسلامي، م3، ج6، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، سنة 1414هـ-1994م .

14 قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم ليبيا والسودان والمغرب ، الناشر 14 ، Edito Creps Internationalمجلد ، المجلد 19-20 ، 1998-1999م .

15 محمد أركون ، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد ، ترجمة: هاشم صالح ، مركز الإنماء القومي ، رأس بيروت ، المنارة ، ط2 ، 1996م .

16مسلم بن حجاج ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، دار الفكر ، بيروت ، 1398 هـ-1978م .

17 Trimingham ، Ahistory of Islam in West Africa ، London 1970 .